



د. عزمي

الرافعي

في ميزان النقد الأوروبي والإسلامي

د. إبراهيم عوضين

تردد على مسامعي قول الشاعر العربي :

وإخوان حسبتهم دروعاً
وخلتهم سهاماً صائبات
فكانوها . . ولكن للأعادي
فكانوها . . ولكن في فؤادي

ومن هنا . . . هيمن على الدراسات الأدبية العربية - باسم الدراسات الحديثة - أولئك الذين ينظرون إلى أدب العربية وأدبائها بعيونهم الأوروبية، ويقومونه ويقومونهم - كذلك - بالمقاييس الأوروبية معتقدين أن ذلك أمانة عصريتهم ومقدرتهم النقدية والفنية .

وقد بدت ملامح تلك الهيمنة الاستعمارية الأوروبية، وهذا الخضوع المستخذي من دارسينا ونقادنا في إخضاع أدبنا وأدبائنا لما أخضع له الأدب الأوروبي والأدباء الأوروبيون من مقاييس وأوصاف، واتجاهات فنية وفلسفية، لها في بيئاتهم من الدلالات ما يوجب على الدارس اليقظ المحايد أن يقصرها على أصحابها . . . ولكن هؤلاء وأولئك شاءوا أن تكون تلك الاتجاهات الخاصة عالمية عامة، حتى لا يكون لنا في أدبنا كيان مستقل عنهم، إمعاناً منهم في أن تظل ذاتيين فيهم، نلهث جرياً وراءهم، حتى لا تقوم لنا قائمة في يوم من الأيام؛ فإذا كانت ظروف الحياة الأوروبية قد فرضت ظهور هذا التوجه أو ذاك - من كلاسيكية، ورومانسية، ورمزية،

تذكرت دور بعض الدارسين العرب في كثير من ميادين الحياة - وعلى الخصوص دور طائفة من دارسي الأدب وناقديه في العصر الحديث - أولئك الذين وقعوا فريسة الغزو الثقافي الأوروبي الاستعماري، فتوجه بهم بعيداً عن الجذور الإسلامية، حتى أصبحوا كالمسحورين الذين يتحركون دون أن يدروا وجهتهم، معتقدين أنهم يتحركون في الطريق السوي، موقنين أن الإنسان العربي لن يكون ابن عصره وبيئته إلا إذا التزم ذلك المسار . !

وهكذا . . . استطاع هؤلاء المستعمرون الصليبيون أن يجعلوا من بعض المسلمين سهاماً مصوبة إلى الإسلام، وإلى صدور المتمسكين به . . . فكانوا أخطر علينا من الأوروبيين المتدربين بهم؛ يتسقطون ما يوهم بأنه خطأ، فيبرؤونه على أنه خطأ خطير، ويتبعون ما يبدو من محاسن الإسلام والمسلمين، فيرجعون إلى أصول أوروبية، معلنين - في صراحة أو بطريق الإيحاء - أن الإسلام انحسر عن التأثير، ولم يعد له وجود في الحياة المعاصرة، إلى جانب ما جد على تلك الحياة من مذاهب وفلسفات .

يجعلها أشلاء موزعة، لكل شلو منها لون خاص، ووجهة مميزة سعيها من وراء ذلك إلى الالتفاف حوله بالرومانسية التي يقصد إلى صبغه بها، فيعلن^(١)، أن من ملامح الرومانسية في

الرافعي ليس كلاسيكياً أو رومانسياً ولكنه أديب إسلامي وخلف فنه لخدمة الإنسان

آراء الرافعي قوله بأن أساس الفن هو الفرد وحرية، وأن هذه الملامح الرومانسية تتجلى عند الرافعي بقدر وافر في إلحاحه على منزلة القلب الشعرية، إذ جعل عمل الأديب يعتمد على رقة حياة القلب وحرارتها، وشعورها وانتظامها، ورأى أن الشعر لسان القلب إذا خاطب القلب، وأن الحواس تنز الشعير على ضربات هذا القلب، وتخرجها ألسنة غير إيقاع، وتتعاون كلها ساعة النظم كأنها تبحث عن شيء غاب عنها في سويداء القلب وظلماته، ورأى أن قلب الشاعر كالمراة التي تظهر ما يشبه الأشباح، وأن العواطف روابط القلوب بالقلوب، والشاعر يوحى للقلب، ولا يكون شاعراً إذا لم يدخل كلامه ونظيره شغاف القلب، وأن على كلامه أن يصدر عن قلبه، وأن الألم يطرب القلب، وأن الشاعر ينقلك إلى حياة أخرى يحياها الدم النائر وحده، لا يشاركه فيها إلا القلب.

ثم يخلص الدكتور من هذه العبارات التي نقلها من مواطن مختلفة في (وحي القلم)، وفي (ديوان الرافعي)، وفي (النظرات)، والتي لفق بينها هذا التلفيق... لينتهي إلى تقرير أن القلب والعاطفة هما مدار الأدب والشعر عند الرافعي، مثلاً كان عند الرومانسيين، وأن هذا الرأي يجلو نزعة الرومانسية عند الرافعي.

فالدكتور الجوزو - بهذا الجهد التلفيقي - يجعل توظيف القلب والعاطفة في الأدب والشعر وفقاً على الرومانسيين... ثم يستنتج من ذلك أن كل من أدار الأدب على القلب والعاطفة بعد القرن السابع عشر الميلادي - مرحلة ظهور النزعة الرومانسية في أوروبا - لابد أن يكون رومانسياً، تأثر بالرومانسيين الأوروبيين، وأخذ عنهم... رضي هو بذلك، أم لم يررض!

خلل الرؤية ينشئ خلل الحكم :

ومع هذا الخلل في التقدير والاستنتاج، الناشئ عن خلل الرؤية وزيفها... يلاحظ الدارس المحايد أن الدكتور قد ركب الشطط - كل الشطط - كي يصل إلى ما قرره؛ فقد تجاوزت به الرؤية الأوروبية أبسط الأساليب العلمية في البحث والاستنباط، وألحقت إلى أسلوب آخر أقامه على التلفيق والافتعال؛ فمزق كتابات الرافعي - من غير حاجة علمية ولا فنية إلى

وسريالية... الخ - فإن على دارسي أدبنا وناقديه - أيا كانت هويتهم - ألا يخرجوا به على تلك الموازين، حتى أصبح مألوفاً مسلماً به تصنيف أدبائنا على تلك الأمس؛ فهذا أديب

كلاسيكي، وذاك رومانسي، أو واقعي، أو رمزي، أو... الخ هذه الصفات والاتجاهات العارضة... مستندين في ذلك إلى ما يترأى في العمل الأدبي من أسارات التشابه مع هذا الاتجاه أو ذاك، مكتفين بوجود تشابه - أي تشابه - بينهما، فكانوا كمن رأى في سبيكة الذهب من التجسم والصلابة مثلاً رآه في قطعة الحجر، فأطلق على الحجر اسم الذهب، أو العكس، وفاته أن الإنصاف والدقة يقتضيان البحث عن أوجه المخالفة - وليس البحث عن أوجه المشابهة - فإذا عدت المخالفة بين الشئين الحق أحدهما بالآخر... المخالفة هي الضمان الدقيق لتحقيق التماثل، أو لنفيه...!

الرافعي أديب رومانسي؟!

من هذا المنطلق المنحرف عن الجادة... تحرك الدكتور مصطفى الجوزو، فقدم كتابه عن الأديب العربي الإسلامي، تحت عنوان (مصطفى صادق الرافعي رائد الرمزية العربية المطلة على السورالية) باحثاً عن أوجه الشبه بينه وبين بعض التوجهات الأدبية الأوروبية؛ قاصداً البحث عن الجذور الأوروبية التي نبتت عليها شجرته الفنية، فربط الرافعي بالرومانسية الأوروبية تارة، وبالرمزية الأوروبية - كذلك - تارة أخرى، مقررًا أن الآثار الأوروبية - خصوصاً الرومانسية - تتجلى عند الرافعي - بقدر وافر!

وعلى الرغم من تعدد المفاهيم التي تحد كل اتجاه تعددا يصل في بعض الأحيان إلى التقابل والتعارض... لم يحاول الدكتور تحديد مقصده من كل وجهة يرى ربط الرافعي بها.

ولا أدري إن كان في ربطه الرافعي بالرومانسية يلاحظ أن الرومانسية - في مجملها - تعني الاستسلام للوجدان الهائم في عالم الأحلام، والدائر في محور الذات الفردية، في مواجهة (الكلاسيكية) التي تعني الخضوع لسلطان العقل.

إنما الذي نراه واضحاً جلياً... أن الدكتور في رحلته النقدية تلك ينظر إلى الرافعي بعين الأوروبيين.

وفي سبيله إلى ذلك لم يجد مانعاً من أن يمزق كتابات الرافعي تمزيقاً

ذلك - ليقوم بعملية التلخيص التي توصله إلى ما استنتج؛ ملتقطاً عبارة من هنا، وجملة من هناك، ولفظة من هنالك... ثم صاغ منها ما صاغ، غير عابئ بما ترتب على هذا الأسلوب من إفساد للمعنى وانحراف عن المقصود، وتزييف للحقائق!

ولو أن الدكتور توخى الإنصاف، وقصد تجلية الحقيقة... إذن لوجه نظره ونظر قارته إلى قول الرافعي نفسه تحت عنوان (الأدب والأديب) - بعد أن تعرض لمقومات الأدب^(٢) - : «إن الغرض الأول للأدب المبين أن يخلق للنفس دنيا المعاني الملائمة لتلك النزعة الثابتة فيها إلى المجهول، وإلى مجاز الحقيقة، وأن يلقي الأسرار في الأمور المكشوفة بما يتخيل فيها، ويرى القليل من الحياة كثيراً وافيّاً بما يضاعف من معانيه، ويترك الماضي منها ثابتاً قاراً بما يخلد من وصفه، ويجعل المألوم منها خفيفاً بما يثبت فيه من العاطفة، والمملول ممتعاً حلواً بما يكشف فيه من الجمال والحكمة».

ويوضح الرافعي في المقال نفسه مقصوده بالأدب، فيعلن عن نزوعه الإسلامي نزوعاً لا لبس معه، يمحو كل صلة له بالرومانسية، في قوله بعد ذلك، معرفاً بالعلاقة بين الأدب والنفس^(٣) : «وأشواق النفس هي مادة الأدب، فليس يكون أدباً إلا إذا وضع المعنى في الحياة التي ليس لها معنى، أو كان متصلاً بسر هذه الحياة فيكشف عنه أو يؤمئ إليه من قريب، أو غير للنفس هذه الحياة تغييراً يبيح طباقاً لغرضها وأشواقها... ولعمري ما جاءت الجنة والنار في الأديان عبثاً، فإن خالق النفس بما ركبها فيها من العجائب لا يحكم العقل أنه قد أتم خلقها إلا يخلق الجنة والنار معها؛ إذ هما صورتان الدائمتان المتكافئتان لأشواقها الخالدة، إن هي استقامت مسددة، أو انعكست حائلة».

ولكن الدكتور أغمض عينيه عن هذا الكلام الصادر عن الرافعي نفسه، واجتزأ من كلامه الجمل التي توهم رومانسيته، ليقره قسراً على التأثير بالرومانسية، استجابة لأوامر ميزانه الأوروبي؛ تمهيداً لجعله رائداً للرمزية العربية، كما شاء، فكان كذلك الذي قرأ قوله تعالى : «فويل للمصلين...» ووقف عند ذلك الحد، ثم راح يعلن أن القرآن الكريم يتوعد المصلين بالويل، ليثبت من ذلك أن القرآن ينهى عن الصلاة، مغفلاً بقية الآية، ومغفلاً جميع الآيات الأخرى التي تحض على الصلاة، وتدعو إليها وتذكر ثواب من يقيمها!

وكما أغمض الدكتور عينيه عن تكملة كلام الرافعي الذي يبين نزوعه الحق، ووجهته الصريحة... تجاهل ما تعنيه (الرومانسية) بمنشئها، واستعمالاتها، وأطوارها، وكأنه قصد إلى ذلك حتى لا ينفر أحد ابتداء من

ربط الرافعي المسلم المتدين بمثل هذه النزعات الشاذة، الموغلة في التطرف بعيداً عن التوازن الذي يجمع بين العقل والقلب، ويمزج الفكر بالوجدان، ويجعل منها كياناً واحداً... هو الإنسان الكوفي، أو الإنسان الإسلامي...!

بين الرومانسية والإسلامية :

إن الناظر المحايد يدرك أن البون شاسع بين الرومانسية والرافعي، فالأديب الأوروبي ما اندفع إلى ما أطلقوا عليه (الرومانسية) إلا حين ناله بالأذى البالغ من اعتصموا بالتقاليد الموسومة بالكلاسيكية، وتمسكوا بعقلها التبريري، فلم يكن أمامه إلا أن يثور مناهضاً تلك (الكلاسيكية التي يستغل باسمها وفي ظلالها، وإلا أن يحرص على الفرار من تلك الوجهة التي يسيطر المتزليون بها على كل مقدرات الحياة... حتى اضطر إلى الابتعاد في ثورته وفي فراره عن حد الاعتدال؛ فوقع فيما وقع فيه من قبله (الكلاسيكيون)، وتحول من الخضوع للعقل التبريري إلى الخضوع للقلب الهارب إلى عالم الأحلام، الدائر في محور الذات الفردية، ينشد بها ولها الحياة الفطرية الوديدة... بعيداً عن القيم الاجتماعية ذات الحدود والفواصل والطبقات؛ فأصبح - من غير أن يدري - سجين وهم صوره، له انفعاله وثورته على الأوضاع التي لم يتقبلها؛ ففر من سجن العقل الأرسطي التبريري المتمثل في (الكلاسيكية)، ليقع في سجن الخيال المحلق، الهارب من الحياة الاجتماعية، إلى زنزانة الذات الفردية!

هذا هو الأديب الرومانسي على وجه الإجمال... فهل هكذا كان الرافعي في يوم من أيام حياته؟!

إن أدب الرافعي متاح لكل قاصد ليقول في صراحة ووضوح : ما هكذا كان الرافعي في عمل واحد من أعماله الأدبية، ويكفي لتقدير ذلك أن نقرأ قوله رحمه الله تعالى مبيناً أساس الفن في رؤيته^(٤) : «ومن ثم نستطيع أن نقرر أن أساس الفن على الإطلاق هو ثورة الخالد في الإنسان على الفاني فيه، وأن تصوير هذه الثورة في أوهامها وحقائقها بمثل اختلافاتها في الشعور والتأثير... هو معنى الأدب وأسلوبه».

فما هو هذا الخالد في الإنسان؟

أهو القلب والعاطفة - كما يقول الرومانسيون - أم هو العقل كما يقول الكلاسيكيون، أم هو ما فوق هذا وذاك؟!

إنه من غير شك محرك القلب والعاطفة، ومحرك العقل والفكر!